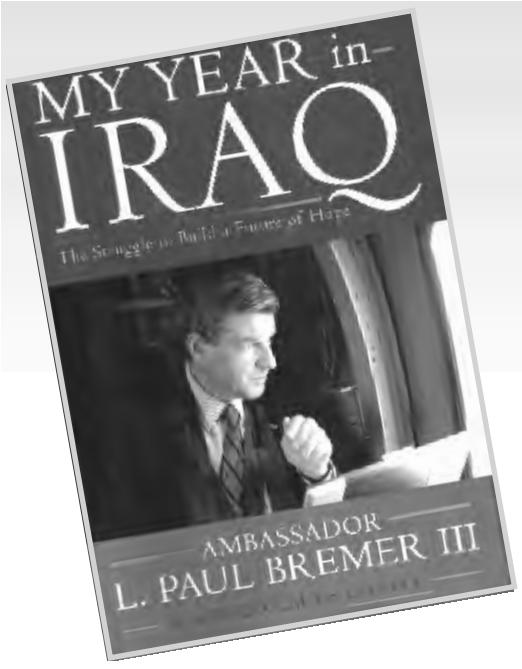

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقة الثانية)

> "لقراءة" الحالة في العراق والتمعّن بها قبل مغادرتي. بين الجلسات، كنت أسعى لتجميع أعضاء الفريق. كان البنتاغون قد عيّنَ للتوّ الكولونيل في سلاح الجو، سكوتي نورود، بصفة مساعد عسكري لي. كان سكوتي يعرف المسالك في وزارة الدفاع، وبدأ مباشرة يظهر مهارات استثنائية. وقدّم سلام البحرية شاباً ممتلئاً بالحيوية هو الملازم أول جاستين ليمون.
>
> في الأسبوعيين التاليين، قمت بسلسلة محمومة من اللقاءات، في البنتاغون، وكنتُ أجاهدُ

في زيارة إلى نائب الرئيس تشيني، علمت بأن مساعده الخاص، بريان مكورماك، كان مهتماً بالذهاب إلى العراق. وجدته واقفاً قرب آلة النسخ، في المكتب الخارجي، في البيت الأبيض، وسألته فيما إذا كان ذلك صحيحاً.

"هذا صحيح،" قال بريان بابتسامة واثقة.

"هل أنت متزوج؟" سألتُ. لم أكن متحمّساً لاصطحاب أناسٍ لهم عائلات شابة إلى بغداد.

"ليس بعد،" أجاب. "يمكنني أن أكون جاهزاً للمغادرة خلال أسبوع."

هذا هو نوع الحماس الذي أحتاج إليه، قلتُ في نفسي، وعينتُه على الفور.

ولإدراكي أنني سأحتاج أيضاً لبعض المشورة الحكيمة، والمجرّبة، فكّرت بصديقي وزميلي القديم السفير كليتون مكمنوي. لقد كان نائبي في وزارة الخارجية لمرتين، وخدم في فيتنام، في وزارة الدفاع، وكان على دراية بمجتمع المخابرات. وبعد جولة في هايتي بصفة سفير لنا، حيث نجح في الإشراف بنفسه على عملية "تغيير نظام" هناك، تقاعد كلاي، وكان يعيش في ساوث كارولاينا.

وبمساعدة وزارة الدفاع، استطعت تسقّط أخباره، والعثور عليه في تلك الظهيرة من يوم الجمعة. كان كلاي في القطار، في طريقه جنوباً، إلى فلوريدا، لقضاء العطلة.

وصفتُ مفهومي للعمل: "العديد من النهارات والليالي الطويلة، ولابد أن يكون هناك مفاوضات شاقّة. سوف أحتاج للكثير من المساعدة، يا كلاي. أرجوك، تعال وانضم إليّ."

"سوف أنزل في المحطة القادمة، وأكون هناك غداً، يا جري."

بعد ذلك، كان لابد من وجود شخص رئيسي يعرف لغة وثقافة العالم العربي. كنت قد عملت عن كثب، قبل عقد من الزمن، مع أحد أفضل موظفي وزارة الخارجية، هو السفير هيوم هوران. عثرت عليه يستمتع بفترة تقاعده في واشنطن.

رهاني عليه لم يخب أيضاً، وفي اليوم التالي انضمّ إلى جلسات استماعي في البنتاغون.

ناقشت أنا وكلاي العمل الإداري الهائل الذي ستواجهه سلطة التحالف المؤقتة. كان التحالف يملك ما يزيد عن ست مائة موظف مدني، وسوف يزداد العدد، من دون شك، إلى الآلاف.

"أعرف شخصاً واحداً باستطاعته أن يتدبر أمر هذا التحدي الإداري،" قلت. "بات كيندي."

"بالتأكيد." وافق كلاي. عملنا مع بات لعقود في وزارة الخارجية، حيث كان يُنظر إليه كأفضل إداري أنجبه سلك الخدمة الخارجية الحديثة.

كان بات يعمل نائباً للسفير في بعثة الولايات المتحدة الأمريكية في الأمم المتحدة في نيويورك. هل سيتخلى عن ذلك، ويترك عائلته، مقابل مخاطر وغموض الحالة في العراق؟ عبر مركز العمليات في وزارة الخارجية، تسقّط كلاي أخبار بات، الذي كان عائداً من عطلة عائلية في المكسيك.

بعد الحصول على مباركة رئيس عمله، السفير جون نيغروبونتي، أبرق بات قائلاً: "شرف كبير أن أخدم."

بقيت فجوة واحدة تحتاج إلى ردم. كنت أعرف أن عملي يتطلب تواصلاً مكثفاً مع الكونغرس. أوحى أحدهم لي بأن الخبير في مجلس الشيوخ، توم كورولوغوس، مهتم بالخدمة في العراق. عرفت توم لعقود، وكنت أدرك أنه سيشكّل إضافة قوية إلى الفريق بسبب الاحترام الكبير الذي يحظى به لدى كلا الحزبين. لكنني كنت أشكّ أنه يريد في هذه المرحلة من حياته أن يترك الأمان الهادئ في ممارسته السياسية في واشنطن، ويواجه مخاطر الحياة في بغداد. ولدهشتي المرحّبة، وافق توم على الفور على الانضمام إلينا. لاحقاً، أضفنا الزميل السابق في وزارة الخارجية، بوب كيللي، إلى الفريق لينسق مئات الزيارات لأعضاء الكونغرس إلى العراق.

وقبل الانضمام إلى العمل بعشرة أيام، استطعت أن أجمع فريقي الشخصي، وكبار نوابي. وبدأت أفكر بحجم المهمة التي تواجهنا. كان ثمة فراغ للسلطة في بغداد. حين دخلت دبابات التحالف بغداد، كانت قد دمّرت سلاح المدفعية والقوة المدرعة للحرس الجمهوري. كانت ديكتاتورية البعث، بقيادة صدام حسين، وهي من أقسى النظم الشمولية، القمعية، في العالم، تتوزّع أشلاءً، وبات قادتها، ملاحقين، مطاردين.

وبالرغم من أن قوات التحالف، بقيادة الولايات المتحدة، قد أنجزت نصف أهدافها المعلنة فيما يتعلق بتغيير النظام، عبر الإطاحة بصدام حسين، كنا ما زلنا بعيدين عن الاهتداء إلى عراقيين وطنيين مخلصين، يستطيعون حكم العراق في مرحلة ما بعد البعث.

وفيما كنت في خضم التفكير في هذا الوضع، أضاف الديبلوماسي السابق، والمحلل الخبير في معهد (RAND)، بعداً آخر، حين أتى إلى مكتبي في البنتاغون. "جري،" قال، وهو يناولني وثيقة يحملها في يده، "يجب أن ترى هذا." كنت أعلم أن مركز (راند) هو واحد من أكثر "معاهد الفكر" احتراماً في البلاد. كانت الورقة عبارة عن مسودة تقرير أعدّه المركز عن عدد القوات المطلوبة لاستتباب الأمن في العراق. كانت الدراسة حيادية، وحاسمة. لم يكن المحترفون في المركز يتعاملون مع سيناريوهات وردية، كانوا يطبقون منطقاً بارداً في التعامل مع المشكلات.

كانت الدراسة تستقصي العلاقة بين مستويات القوات والاستقرار، خلال سبعة احتلالات سابقة، تتوزّع بين التجربة التي أعقبت حرب الحلفاء، في الحرب العالمية الثانية في ألمانيا واليابان، وصولاً إلى الصومال عام ١٩٩٣، ثم إلى البلقان لاحقاً في نهاية العقد، وأخيراً تجربتنا الراهنة في أفغانستان. وبالرغم من أنني لست خبيراً عسكرياً، وجدتُ النتائج التي توصلوا إليها مقنعة. ومدعاة للقلق.

أظهرت الوثيقة التاريخية أنه إذا كان عليك تحقيق الاستقرار في السنوات الأولى التي تعقب الاحتلال العسكري، لا بد من وجود عشرين جندياً من قوات الاحتلال لكل ألف نسمة في البلد المحتل.

"عدد سكان العراق اليوم،" يقول التقرير، "يقارب خمسة وعشرين مليوناً. هذا الرقم يتطلب ٥٠٠ ألف جندي على الأرض، لكي يلبي نسبة عشرين عسكرياً لكل ألف من السكان. هذا الرقم يزيد ثلاثة أضعاف على عدد القوات الأجنبية الموجودة في العراق الآن."

كان التحليل مذهلاً. كنتُ أوافق على جهود وزير الدفاع رامسفيلد الساعية إلى تغيير العسكرية الأمريكية بشكل يتناسب مع التحديات الصاعدة في القرن الواحد والعشرين. كان رامسفيلد يتخيل وحدات أصغر حجماً، وأكثر قوة على المناورة، تسندها تجهيزات "مضاعفة" من أسلحة ذات دقة عالية وقوات خاصة. وكنت أيضاً أتفق معه بأن قواتنا لا تزال مجهزة بشكل جيد لاحتمال قتال أرضي عنيف في أوروبا، ولكنها ليست كذلك تحسباً لأحداث طارئة يمكن أن نواجهها في بقاع أبعد من العالم. علاوة على ذلك، فإن قوات رامسفيلد الأكثر خفةً وسرعةً قد حققت نصراً خاطفاً، مذهلاً في العراق. ولكن، هل الوضع على الأرض في العراق يدعم الاستنتاج بأننا نحتاج إلى ثلث قوات الاحتلال التي تقترحها الدراسة التي أعدّها مركز (راند).

بعد الظهر من ذلك اليوم، أعددتُ تلخيصاً من نسخة مسودة التقرير وأرسلتها، عبر الكوريدور، إلى دون رامسفيلد. "أعتقد أنه يجب أن تدرس هذا،" قلتُ في ملاحظتي المكتوبة على الغلاف.

مرّ الزمن، ولم أسمع منه شيئاً البتة بخصوص التقرير.

في اليوم التالي، كنت أنا والكولونيل نورود نتحدث عن مهمّتنا.

"هل تعرف، سيدي،" قال، بعدما قرأ جدول فريقنا، "جميع المدنيين في بغداد هم من المتطوعين. سيكون العمل صعباً ومنهكاً، وربما خطيراً." كان على حق. لم يكن بمقدور سلطة التحالف المؤقتة أن تنجح من دون أن أقوم بدور الملهم والموقظ لإخلاص وتفاؤل الناس معي. بعد التفكير في هذا ملياً، ولعدد من الأيام، استقر بي الرأي على شعار المهمة الذي كنتُ آمل أن يبث التفاؤل.

اختار سكوتي شخصاً في البنتاغون ليقوم بتجهيز لوحات الأسماء الخشبية الطويلة لمكاتبنا. على لوحتي، أضاف الصانع عبارة سيراها الزوار إلى مكتبي على مدى أربعة عشر شهراً قادمة، تقول: للنجاح ألف أب.

خلال تلك الشهور، كنت أقول لأعضاء فريقي بأنني أعني كل كلمة في هذه العبارة.

في غضون ذلك، كانت قد بدأت "التسريبات" المعتادة في واشنطن. أخبارُ تعييني المحتمل وصلت إلى وسائل الإعلام بعد لقائي مع الرئيس بوقت قصير. ودارت طاحونة الإشاعات بأعلى سرعتها، محاولةً تقييم اختياري، وعلاقته بالحرب الدائرة على السطح بين وزير الدفاع رامسفيلد ووزير الخارجية كولن باول.

بعض القصص أشارت إلى أنني كنت أعرف رامسفيلد منذ أن كنا نخدم معاً في إدارة فورد. ولأنهم لاحظوا بأن رامسفيلد هو الذي اقترح اسمي للرئيس للقيام بالمهمة، خرجوا بنتيجة تقول بأنني "رجله." قصص أخرى ركزت على سنوات خدمتي الطويلة في السلك الديبلوماسي، حيث أتيحت لي خلالها معرفة باول، وتكهنت بأنني حقاً مرشح وزارة الخارجية.

كان واضحاً أن الرئيس بوش على دراية بكل هذه الشائعات لأنه، في الأسبوع التالي، وقبل أربعة أيام فقط من مغادرتي إلى بغداد، دعاني إلى تناول الغداء معه، وحيداً، في البيت الأبيض، قبل اجتماع لمجلس الأمن القومي.

أكلنا في غرفة صغيرة، ليست بعيدة عن المكتب البيضاوي، وكانت النوافذ مفتوحة على حديقة البيت الأبيض. كلانا كان رياضياً، جورج بوش كان عداءً، وأنا كنت مدرب رفع أثقال، وقد اشتركت في منافسات السباعي، وسباقات الماراثون. هكذا اكتفينا بأكل سلطة الكمثرى والخضراوات.

بعد نقاشات واسعة النطاق حول قضايا السياسة الخارجية، ركّزنا على العراق.

"ماذا يمكنني أن أفعل لمساعدتك؟" سأل بوش.

"أحتاج للمساعدة في بضعة أمور، سيدي الرئيس،" قلت.

أولاً، أشرتُ إلى أنّ تجربتي في الحكومة والقطاع الخاص، جعلتني مدافعاً قوياً عن مبدأ "وحدة القيادة". لا يمكنني أن أنجح إذا كان هناك آخرون في العراق يقولون إنهم هم أيضاً يمثلون الرئيس. كنت بشكل خاص مهتماً بمسؤول مجلس الأمن القومي، زالماي خليل زاد، الذي كان يحمل لقب "مبعوث رئاسي،" والذي زار العراق في منتصف نيسان، ليساعد جي غارنر في الإتصال بالقادة السياسيين. وكان لدي انطباع بأنه سوف يستمر في زيارة العراق حاملاً صفة "المبعوث."

"سيدي الرئيس، هذا يعني أيضاً أنه يجب أن أمتلك الصلاحية الكاملة في تسخير موارد الحكومة الأمريكية لإعادة بناء العراق."

"أفهم وأوافق،" قال مباشرة.

"سيكون ذلك شاقاً، ويستغرق وقتاً طويلاً،" قلت، "سباق ماراثون، وليس مسافات قصيرة. وسوف أحتاج دعمك لشراء الوقت من أجل القيام بعمل محترم."

كان بعض الناس يظنّ أن باستطاعتنا الفوز باحتلال قصير، وتسليم السلطة بسرعة إلى مجموعة مختارة من المنفيين العراقيين. بُني هذا التفاؤل في جزء منه على السهولة النسبية للحملة العسكرية التي وصفت "بنزهة قصيرة." ويبدو أنّ هذا التصور قد شجعته توقعات بعض هؤلاء المنفيين. قبل يوم فقط، وفيما كنتُ في طريقي إلى عملي في البنتاغون، كان الخبر الرئيسي في نشرة السادسة مساء إعلان جي غارنر عن نيته تعيين حكومة عراقية في الخامس عشر من أيار. كادت سيارتي تخرج عن مسارها في شارع جورج واشنطن.

كنت أعي أن عملاً حذراً يجب القيام به لتجنّب تجريح المناصرين، العراقيين والأمريكيين، لهذه الفانتازيا الطائشة- ما كان يُطلق عليه البعض في الإدارة "نقلاً مبكراً" للسلطة- التي تبلورت جزئياً بسبب كرههم فكرة "بناء الأمة." ذكرتُ للرئيس أن منح العراق بنيةً سياسيةً مستقرةً يتطلب، ليس إنشاء مؤسسات ديموقراطيةفحسب، بل خلق ما أسميته "مصاصات صدمة"، اجتماعية أيضاً، وهي بمثابة مؤسسات تشكّل عماد المجتمع المدني- صحافة حرة، نقابات عمال، أحزاب سياسية، ومنظمات مهنية. هذه الأشياء، قلتُ للرئيس، هي ما يساعد على طمأنة الجميع من بأس حكومة متنفذة.

"أفهم ذلك،" قال الرئيس بوش. "وأنا ملتزم تماماً بالإتيان بحكومة تمثّل الشعب العراقي. إننا لن نخذل العراق." توقف برهة، ثم أضاف مؤكداً، "سوف نبقى حتى تُنجَز المهمة. يمكنك أن تراهن على دعمي، بغض النظر عن الروزنامة السياسية، أو ما يمكن أن تقوله وسائل الإعلام."

"ثمة قضية أخرى هامة ، سيدي الرئيس،" أضفتُ. "عدد القوات. أنا ديبلوماسي ولستُ جنرالاً. لكنني اطلعت على تقرير أعتبره مقنعاً، أعده مركز (راند)، يرى أنه إذا أردنا جلب الاستقرار إلى العراق، فإننا نحتاج إلى عدد أكبر بكثير من القوات الموجودة الآن."

حرص بوش على الإصغاء جيداً، وأشار إلى أن الوزير باول ووزارة الخارجية سوف يحاولان تجنيد المزيد من القوات من دول صديقة. "لكنني سأذكر ذلك"، قال.

بعد الانتهاء من غدائنا، قادني الرئيس إلى المكتب البيضاوي، وطلب من الآخرين أن ينضموا إلينا. حين اصطفوا كتفاً لكتف- نائب الرئيس، وزيرا الخارجية والدفاع، مستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس (كوندي)، وآندي كارد، رئيس المستشارين في البيت الأبيض- أومأ لي بوش بالجلوس على الكرسي قربه، وقال مازحاً، "لا أعلم إن كنّا نحتاج لهذا الاجتماع على أي حال. جري وأنا خرجنا منه للتو."

كانت رسالته واضحة. لم أكن رجل رامسفيلد ولا رجل باول. كنت رجل الرئيس.

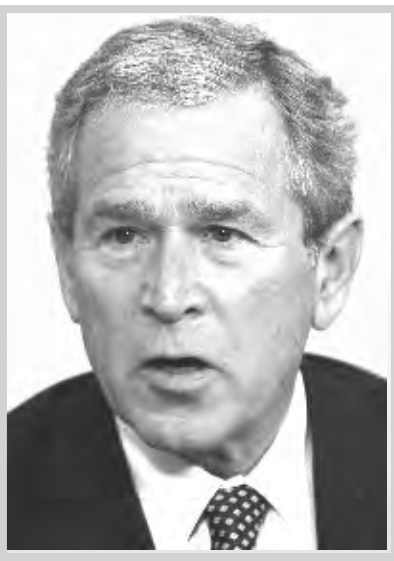

يتبع